فخزرتها محذِّراً. ثم قلت لها:

ـ «لماذا لا تذهبين إلى المطبخ، تصنعين لنا شاياً»؟

ـ «الآن!؟»

ـ «إذن اجلسي في صمت رجاءً، حتى...!»

نزل الصغيرُ من حضني، ولاذ بحضن أمه، كأنه يخفف عنها. نظرتْ زوجتي إلى وجهي، وقالت:

ـ «لماذا لا نجلس في مكان آخر من البيت!؟»

قلتُ لها:

ـ «كل الأماكن، في مثل هذه الساعة، سواء».

في الخارج استمرتِ المدافعُ تطلق نيرانها بكثافة على الهدف المخاتل. ثم دوّى انفجارٌ مهول، على مسافة قريبة، فاهتزتِ الأرضُ تحتنا، وارتجّتِ الأبوابُ والنوافذ، بسبب عصف الريح. وعلى الفور سمعنا صوتَ انكسار لوح الزجاج الكبير في إطار النافذة، وانهمار الشظايا على الأرض وراء الستارة. وتعطّل المذياع ـ بسبب الانفجار ربما ـ وسكت صوتُ الموسيقى. بان الفزعُ في عينَي الصغير، وامتقع وجهُ زوجتي. رأيتها تحمله وتهرع به إلى الداخل. بعد ذهابهما وقفتُ بمنأى عن النافذة، أتأمل الستارة تلعب بها الريحُ، وصخبُ المدافع يملأ المكان من حولي، كأنها معي في داخل الغرفة. بعض شظايا الزجاج، من اللوح المنكسر، اخترقتْ قماش الستارة، وأحدثتْ فيه شقوقاً راح يتخللها ضوءُ النهار، فبدت الستارةُ كأنها مطرّزة بخطوط فضيّةٍ متنوعةِ الرسوم والأشكال. صمتتِ المدافعُ أخيراً، ومرتْ سيارةُ إسعاف تطلق صيحتها المألوفة في سكون الشوارع الخلفية، وتبعَتْها سيارةٌ أخرى بعد قليل. ثم ران صمتٌ امتد دقائق طويلة، قبل أن تعود الصافرةُ لتطلق صيحة ثانية، بنبرة مغايرة، هذه المرة، كأنها تتنهّد. وعاودت المدينةُ لَغْطَها المعتاد من جديد. أزحتُ الستارة عن النافذة فغمرني الهواءُ، يتدفق بكل عنفوانه، دون حواجز، حاملاً معه رائحةَ خليطٍ من الدخان والتراب وأشياء أخرى. إلا أنني لم ألمح ما يشير إلى وجود حريق في أيّ مكان، في رقعة الفضاء المفتوحة أمامي. بدت السماءُ صافيةَ الزرقة يحلّق فيها الحمام البريّ ـ الذي عاد يتخاطف، في الشمس، فوق أشجار النخيل وسطوح المنازل، كأنّ شيئاً لم يحدث قط ـ لولا رائحة الاحتراق في الهواء، ونثارُ الشظايا على أرض الغرفة، وفراغُ إطار النافذة من لوح الزجاج.

ـ «انتهتْ أخيراً»!

سمعتُ زوجتي تزفر بارتياح، وراء ظهري. التفتُّ أنظر اليها. وجدتُ الصغير يتعلق بيدها، ورأيته يتأملني في حيرة، وفي عينيه سؤال، كأنه ينتظر مني تفسيراً لما حدث. قلت له:

ـ «تستطيع أن تخرج الآن، لتلعب في الحديقة».

بقي متردداً، يرنو، من خلال النافذة إلى كرته المطاطية تستقر ساكنة في مكانها، فوق العشب الأخضر المضاء بالشمس. ثم أفلت يَدَ أمه، وغادرنا.

قلت لزوجتي:

ـ «دعينا نجمع حطامَ الزجاج، لكي لا يَجْرح أحداً».

رحنا نلملم الشظايا من على الأرض، ومن على المقاعد القريبة من النافذة. وكنتُ مطرِقاً أجمع القطع الصغيرة في حذر، حين سمعتُ زوجتي تقول بصوت شارد:

ـ «أنظر إليه!»

رفعتُ رأسي. وجدتُ الصغير يدحرج الكرة على العشب، ثم يمشي وراءها، بخطى متثاقلة، يلتقطها من على الأرض، ويقف بعد ذلك، بلا حراك، لحظةً طويلةً، شعره يلمع في الشمس، والكرةُ ساكنةٌ بين يديه، يرنو إلى السماء، في توجس، كأنّه يسمع أصداءً غريبةً بعيدة.

أوشكتْ زوجتي أن تقول شيئًا، إلا أنها زمّتْ شفتيها، ولم تبُحْ بشيء، وواصلْنا لَمْلَمَة الحُطام صامتيْن.

بغداد

الطائرة الصغيرة ذات المحركين فوق المحيط تترنح، وفي هديرها الصاخب قرقعة تبعث القشعريرة في البدن. المصابيح الحمر الصغيرة فوق الرؤوس مضاءة منذ أن أقلعت الطائرة. عدد الركاب القاصدين تلك الجزيرة المتوحدة قليلون، معظمهم من الوجوه الأوربية، أما المسافرون المحليون ذوو السحنات الداكنة فقد كانوا أقلية في الطائرة.

المقاعد متهرِّئة وتفوح منها رائحة شبيهة برائحة الزنخ. وبرغم الرطوبة الخانقة داخل الطائرة، ورائحةِ عرق الأجساد النفّاذة، فإنّ الأحوال الجوية في الخارج تنبئ بقدوم عاصفة شتائية.

كانا على اتفاق مسبق على القيام بهذه الرحلة، إلا أنها ما انفكّتْ تتذمر قائلة:

ـ أف... لو أننا...

ويقاطعها:

ـ لو أننا ماذا؟ كفاكِ تشاؤماً.

ـ لا شيء. أقول... إنني أفكّر في... لو أننا لم...

يمدّ يده نحو وجهها، وبراحة كفه يصمّ فمها برفق قائلاً:

ـ أعرفُ ما يخطر ببالكِ. أعرف ما تريدين قوله، اتركي ما في الغَيْب للغيب. لا تُفْسدي علينا متعة اللحظات القادمة في تلك الجزيرة الساحرة. دعينا نتمتع بأوقاتنا بلا مُنَغِّصات.

قالت وعيناها زائغتان:

ـ السماء هنا أحوالها عجيبة، إنها لا تشبه سماء بلادنا.

يقول مستنكراً:

ـ نحن فوق المحيط الهندي، في منتصف الكرة الجنوبي، وتحت خط الاستواء. لا تنسي هذا.

قالت:

ـ في ساعة معينة من عصر كل يوم.. في توقيت لا يخطئ، وبعد صحو رائق وشمس ساطعة، تتجمع الغيمات... تتقافز وتتراكض من كل صوب وكأنّ رعاة خرافيين يسوطونها وهي ما تفتأ تزأر... تبرق وترعد... وغيمة من هنا وغيمة من هناك... ومن كل مكان تأتي.. تلتمّ بعضها على بعض، مكوِّنةً كتلةً ثقيلةً هائلة، ثم تبدأ بالانفجار، فَتَسْوَدّ الدنيا وتصبّ سيولاً تجرف أمامها كل شيء. أليس هذا عجيباً؟ أمس الأول بعد أنْ هدأتِ الأمطارُ، كانت حديقة بيتنا قد غمرتها المَياهُ على نحو تام... وامتلأتِ السواقي وأحواضُ الزهور بالضفادع، التي خرجت من أوكارها... أتعرف ماذا فعل الفلاح؟ رأيته يضرب الضفادع بمسحاةٍ وهو يتفوّه بكلمات، تمنيتُ لو فهمتُ معناها. أظنها كانت شتائم أو شيئاً من هذا القبيل.. وكانت الضفادع تساهم في إتلاف زهوره، إضافةً إلى سيول المياه.

يتطلعان عبر النافذة الصغيرة وقد ألصق رأسه برأسها. غيمة عملاقة داكنة تسرع نحو الطائرة، يراقبانها آتيةً من بعيد، وماتلبث أن تصل، وتحيط بالطائرة الصغيرة وتبتلعها وتحجب ضوء النهار عنها.. فتنطفئ الأضواءُ الحمرُ الصغيرة ويسود الظلام.

قالت وهي ترتعد:

ـ كأننا في أحشاء غول.

صوت هادئ لا أثر فيه للخوف يأتي منزّناً من صوب القيادة:

ـ «نرجو ربط الأحزمة».

قالت وهي مرتبكة:

ـ ومتى حللنا الأحزمة كي نربطها؟

ـ «ونذكّر المسافرين الكرام أن سِتَر النجاة المطاطية تحت مقاعدهم مباشرة».

كان الصوت يأتي واثقاً.

صاحت وهي تضرب رأسها بيدها:

ـ يا ويلي.. نحن هالكون.

قال:

ـ هذه أمور روتينية يكررون قولها في كل رحلة.

ترنو إليه متوسِّلةً... تتلاقى نظراتهما فيصطنع ابتسامة وهو يربِّت يدها.

قالت:

ـ أحس أنّ المقعد من تحتي سينقلع، وبعد قليل سنُقذف أنا وإيّاك إلى حيث لا قرار.

ـ تقولين أنا وإيّاك. يعني أننا سنكون معاً. وهذا يكفي.

ـ وتبتلعنا الأمواج؟

يضحك ويقول:

ـ لا تنسي أني سبّاح ماهر.

تقول بعصبية:

ـ لو مرّة رأيتك جاداً! أنت لا تَظْهر على حقيقتك. القلق واضح في عينيكَ، ومع ذلك..

ـ إنها هواجسك لا أكثر. هذه الطائرة تعبر المحيط كل يوم مرتين. احمدي الله أنك تعبرينه في النهار. ماذا كنت ستفعلين لو أننا أخذنا الطائرة ليلاً؟

ـ سيكون ذلك أفضل، فأنا لن أرى إذّاك كل هذه الأهوال حولي. الظلمة ستُخفي عني كل شيء.

يضحك ويقول:

ـ جيد أنّك أفْصحتِ. يعجبك أن تكون الأمور مستورة، وأن تُخفى عنك الحقائق... أهذا ما تريدين قوله؟

يضحكان معاً.. يكتنفها بعضُ السلام. تتشبث بذراعه، إلا أنها تعود لتطلّ من الكوة متطلعةً نحو المحيط الذي استحال في تلك اللحظات وحشاً يزأر. تراقب السماء التي تحجبها الغيوم الراكضة من كل صوب وهي تتشكل حيواناتٍ عملاقةً غريبة. وتختلط عليها الصور فتشعر بالغثيان. تبتعد بوجهها عن النافذة وتقول:

ـ كأنّ الجبال زُلزِلَتْ.

ـ لا جبال هنا ولا يابسة.. نحن معلقون بين السماء والبحر.

يدها اليمنى تتشبث بكفه، واليسرى تنغرز أصابعُها ما بين صدرها والقميص.

ـ ماذا بكِ؟

ـ نبضاتُ قلبي تسرع.. أَسمعها في أذنيّ مثل المطارق.. سيتوقف قلبي.. سأموت.. سيصرعني الخوف.

يسحب الستارة الصغيرة ويسد بها الكوة وهو يقول:

ـ كفّي عن المراقبة... اصرفي ذهنك إلى أمور أخرى... انسي وجودك، فالنسيان شكل من أشكال الحريّة.. ألم يقل جبران هذا؟ فكّري في شيء آخر.. أيّ شيء!

ـ كيف؟

ـ في غابات افريقيا ينصحون مَنْ يهاجمه نمرٌ أو أسدٌ أن يقف ساكناً مستكيناً. فيأخذ بالنصيحة ويغمض عينيه وينغمر في شيء آخر. وأنتِ هنا أمامك وحشٌ من نوع آخر. أغمضي عينيك وتذكري اللحظات الجميلة في حياتنا.. تذكري لقاءاتنا، مواعيدنا.. تذكري العلاقة الحميمة والصداقة النادرة وحبَّنا الكبير. تذكري أهلنا وأحبَّتنا والأصدقاء الرائعين.

قالت ودموعها تنهمر:

ـ وهل للحجر أن تنبض فيه الحياةُ؟ أنا في هذه الساعة لست أكثر من قطعة حجر.

ـ وهل يخاف الحجر؟ أرأيتِ؟ أنت تجعلين الحياةَ تسري في الحجر، وهذا فألٌ حسن.

يضحك فتمسح دموعها وتضحك معه ويتبادلان النظرات.

مطبّة هوائيّة عنيفة تحتوي الطائرة وتهبط بها إلى علوّ منخفض، فتلمسها الأمواجُ الهائجة، التي ارتفعتْ إلى علوّ شاهق، وترشّ نوافذها بالرذاذ.

تصرخ وتتشبث به بحركة لاإرادية خائفة.

يطوِّق كتفيها ويقول بحنان:

ـ هل ركبتِ في طفولتك دواليبَ الهواء؟ كنا نركبها كثيراً، ولاسيما في الأعياد. تخيلي نفسَكِ الآن وأنتِ تركبين دولاب هواء، يرتفع بك ويهبط. ما شعرتُ به أنا الآن هو الشعور ذاته. فلتفكري به. افعلي ما أقول لكِ.

تُطرق رأسها بيأس وتذهب بأفكارها بعيداً.. تسترخي واضعةً رأسها فوق كتفه.. تغمض عينيها وتنغمر بالطوفان.

بغداد

قضبان الروح

أحمد م. حميده

هو العين والبصر... عكّاز النهار، ومُؤْنِس الليل.. معلّقٌ بالتلافيف والأصابع.. وديعة دائماً بيده.. مستسلمة باطمئنان جميل..

مبصرٌ هو وصغير.. يلهو هناك بين أبدان البشر.. يذهب ويجيء. يجوس الممرَّ وسيقانَ الواقفين، ركابِ قطار الضواحي البطيء. ينظر إليها، إلى جوار الباب قاعدةً، صامتةً تُرْهف السمعَ بقلق. لا بد للأطفال أن يمرحوا. يلعب ويعود، على أطراف الأصابع. يدنو من الأذن، يغزو الدماغ، ينفذ إلى القلب لتنبسط أساريره.

يتناءى صوتُه.. تدرك أنّه هَرْوَل إلى العربة الأخرى حيث أصواتُ الأطفال المتجولين بالأمشاط وعلب الكبريت والبسكويت. أصدقاء العام الفائت، تعارفوا حين كان مثلهم يسرح بإبر الخياطة قبل موت أبيه الأعمى، قبل أن يكون عيناً لأمه ومرشدها.

كان يحسّ ـ وأقرانُهُ يتناثرون بالعربات البعيدة ـ بشعاع استشعارها السمعي الرهيف يسعى إليه، يحيط به، يغمره. فلا يتباعد.. بل ينفلت من بين الركاب، ويتقارب.. ببطء الحذِر. يدنو من البدن المقرفص بجانب الباب المفتوح. تنبسط قسماتُ الوجه المُنْصِتِ..

ـ إنْتَ جيتْ يا حسن؟

يقرفص قدّامها.. تشعر بأنفاسه تتردد... يبتهج ويعدو.

والركاب المجهَدُون، الذين استحلب قواهم النهارُ المنصرمُ، يتناقصون. يتجشّأهم القطارُ في المحطات الفائتة، ويشفط آخرين من فوق الأرصفة. يتصارعون. يتلاصقون..

ركاب آخر الخط مألوفو الوجوه، حاملو القطار على الكواهل يلمحونها تقريباً في كل يوم.. لكنهم لم يكونوا يعرفون من أية محطة تركب هي وطفلُها المبصر، ولا في أية محطة تنزل.. موجودةٌ هي مثل كل الموجودات التي تصادف أعينَهم يومياً أثناء النهار، بالعربة الأولى، أو الثانية، أو العرباتِ الأخرى. كأنهما لا يغادران القطار أبداً.. ثوبها القديم باهتُ السواد فضفاضٌ فوق جسدها المقرفص كمن يتأهّب للوثب. سكونُ قسمات الوجه القانع الملفوف بطرحةٍ بيضاءَ كالحةٍ حتى الاصفرار.. توجِّه الأذن نحو الداخل.. تتحسس قروشاً يُسْقطها البعضُ في حجْرها. أذنها كجهاز إرسالٍ واستقبالٍ يبثّ إشعاعاً لا يكل، يتواتر، يراوغ الصخب، وينفذ حيث طفلُها اللاهي.. يكهربه حبل المودة المجهول، فينصت أحياناً فربما تدعوه، فيهرع إلى جوارها.. تمسّد رأسه المتلهفَ للعودة إلى اللعب.

ـ اقعد يا حسن.. بيكفي لعب يا حسن.

ـ طيب... قعدنا..

تمدّ إصبعين، تقرص فخده الرفيع.

ـ عيب يا حسن.

يتأوه شبهَ باكٍ، تقول:

ـ النهار طويل قدامك...

ـ النهار قرَّب يروح يامّه..

ـ هي الساعة كام دِ الوقت؟

ـ الشمس قربت من البحر..

ـ يعني لسّهْ بدري؟ قلْ لي شايف ايه..؟

ـ اللي كل يوم بشوفه..

ـ شايف ايه يعني..؟